

## الزنگيون في الموصل

### من خلال كتاب "الكواكب الدرية"

لابن قاضي شهبة (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)

The Zangids in Mosul through the Book of Al-Kawakib Al-Dariah by Ibn Kādī Shuhba  
(d. 874 AH / 1469 AD )

أ.م.د. صهيب حازم عبد الرزاق الغضنفر

جامعة الموصل / مركز دراسات الموصل / قسم الدراسات الادبية والتوثيق

الاختصاص الدقيق: تاريخ عباسي

Asst. Prof. Dr. Suhaib Hazim Abdul Alrazzaq Alghadanfary  
University of Mosul, Center for Mosul Studies,  
Department of Historical and Sociological Studies  
Specialization: Abbassid History

ملخص البحث

اختص البحث بجانب محدد من كتاب "الكواكب الدرية في السيرة النورية" وهو الزنكيون في الموصل؛ إذ تناول الكتاب زنكي الموصل باهتمام شديد لأهمية الدولة الزنكية في الموصل لكونها الأساس الذي تفرعت منه الدولة النورية. وقد تناولنا موضوع البحث من خلال جوانب ثلاثة: وهي الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي. واستندنا في ذلك إلى النصوص التي تضمنها الكتاب، والتي احتوت على معلومات وافية عن الزنكيين في الموصل منذ قيام الدولة الزنكية حتى وفاة الملك العادل نور الدين محمود، الذي اختص كتاب "الكواكب الدرية" بسيرته وحسب التسلسل التاريخي الذي سار عليه الكتاب.

الكلمات المفتاحية: الزنكيون ، شهبة ، نور الدين

Abstract

The research was devoted to a specific aspect of the book Al-Kawakib Al-Duriya in the Al-Sira al-Nouriah, which is the Zangids in Mosul. The book dealt with the Zenkids of Mosul with great interest in the importance of the Zangi state in Mosul because it was the basis from which the Nouri state branched. We have dealt with the subject of the research through three aspects, namely the political, social and economic aspect. We based this on the texts included in the book, which contained adequate information about the Zangids in Mosul since the establishment of the Zangid state until the death of King Nur al-Din Mahmud, who singled out the book "Al-Kawakib al-Duriya" with his biography and according to the historical sequence that the book followed.

المقدمة

لقد تناول البحث مؤرخاً من مؤرخي القرن (التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي)، وهو ابن قاضي شهبة، وكتابه الكواكب الدرية في السيرة النورية وهو من كتب السيرة التي بحثت في سيرة الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، وابن قاضي شهبة ليس المؤرخ الوحيد أو الأول الذي كتب في سيرة الملك نور الدين محمود بل كان هناك من هو قبله ومن هو بعده. فمن أشهر الكتب التي كتبت في السيرة النورية، مؤرخ الشام أبو شامة المقدسي الذي كتب في سيرة الملك نور الدين محمود والسلطان صلاح الدين الأيوبي وبشكل موسع ووافٍ. وهناك من الكتب ما تناولت أخبار الدولة الزنكية وأسهب في أخبار الملك نور الدين محمود لكونه أهم وأشهر ملوك الدولة الزنكية في الشام، ومنها كتاب ذيل تاريخ دمشق لأبن القلانسي، والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل لعز الدين بن الأثير، ومفرج الكروب في أخبار بني أوب لأبن واصل في الجزء الأول من الكتاب. في حين خصص ابن قاضي شهبة كتابه "الكواكب الدرية في السيرة النورية"

للملك نور الدين محمود. أما البحث الموسوم الزنكيون في الموصل من خلال كتاب الكواكب الدرية لابن قاضي شعبة(ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) فقد اختص بجانب مهم من أخبار الحقبة التي أرخ لها ابن قاضي شعبة وهو الزنكيون في الموصل من خلال هذا الكتاب ، وهو جانب مهم وله حيزٌ كبيرٌ في الكتاب لأن الموصل في عهد الملك نور الدين محمود كان يحكمها الزنكيون من إخوته، ولم تكن بعيدة عن سلطته.

تضمن البحث تمهيداً اشتمل على ذكرٍ لأهم الكتب التي سبقت كتاب الكواكب الدرية في أخبار الملك نور الدين محمود وأخبار الدولة الزنكية في الموصل وفي الشام، وأربعة محاور: تضمن المحور الأول سيرة المؤلف ومصادره ومعلوماتٍ عن الكتاب وأسلوب مؤلفه. وتناول المحور الثاني الجانب السياسي من تاريخ الزنكيين في الموصل من خلال الكتاب، في حين تناول المحور الثالث الجانب الاجتماعي، فيما تناول المحور الرابع الجانب الاقتصادي ومظاهره، كما تضمن البحث خاتمة تناولت أهم ما خرج به الباحث من استنتاجات.

#### التمهيد

لقد شهد القرنان من السادس إلى الثامن الهجريان/ الثاني عشر إلى الرابع عشر الميلاديان كتاباتٍ تاريخيةٍ تطلبت لها أحداث تلك الحقبة وأهمها الحملات الصليبية التي استهدفت الأراضي العربية في الشام ومصر والجزيرة، وما حدث في تغييرات في ميزان القوى شهدتها الدولة السلجوقية والضعف الذي دب في السلطة السلجوقية وظهور الأتابكية الزنكية التي كانت امتداداً للسلطنة السلجوقية وحلت محلها وأخذت على عاتقها التصدي للحملات الصليبية وحددت من نفوذها وقوتها وأعاققت أهدافها ومنعتها من احتلال مصر. لذلك فقد ظهر مؤرخون اختصوا بتاريخ أحداث ذلك العصر، وتنوعت أهداف الكتابة التاريخية بين التاريخ المحلي الذي اختص بتاريخ مدينةٍ محددة كدمشق وحلب، والتاريخ الإسلامي العام، وكتب السيرة التي اختصت بسيرة أبطال ذلك العصر، فمن الأمثلة على تلك الكتب تاريخ ابن القلانسي الذي عُرف بـ "ذيل تاريخ دمشق" لأبن القلانسي(ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، و"تاريخ دمشق" لأبن عساكر(ت ٥٧١هـ/١١٧٦م) اللذين اختصا بتاريخ مدينة دمشق، و"التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل" لأبن الأثير(ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، و"زبدة الحلب من تاريخ حلب" لأبن العديم(ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، أما كتب التاريخ الإسلامي العام فأهمها كتاب "الكامل في التاريخ" لأبن الأثير ذاته صاحب كتاب التاريخ الباهر، والذي عاش ومات ضمن الحقبة المذكورة؛ إذ وُلِد في القرن السادس الهجري ومات في القرن السابع الهجري. أما الكتب التي تناولت الأعلام فهي -فضلاً عن "تاريخ دمشق" - فهناك كتاب "بغية الطلب في تاريخ حلب" لأبن العديم ذاته، وكتب السيرة وكان أغلبها عن الملك العادل نور الدين محمود ومنها كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" الذي اختص بسيرة الملك العادل نور الدين محمود والسلطان صلاح الدين الأيوبي، وكتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية الذي تناول سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي وآخرها كتاب "الكواكب الدرية في السيرة النورية" الذي تناول من سيرة الملك نور الدين محمود موضوعاً له.

أولاً. سيرة المؤلف:

هو الفقيه البدر أبو الفضل مُجَّد بن أبي بكر بن أحمد بن مُجَّد بن عمر بن مُجَّد بن عبد الوهاب الأسدي الدمشقي الشافعي، ويعرف بأبن قاضي شهبه، نسبةً إلى قرية شهبه وهي من قرى حوران، (الحموي، ١٩٠٦م، ٣/٤٢٥)، ولد في فجر يوم الأربعاء الثاني من صفر من العام (١٣٩٦هـ/١٧٩٨م)، ونشأ محباً للعلم، فحفظ كتباً منها كتاب "المنهاج" لرؤيته رآها والده، وتفقه أبين قاضي شهبه على والده وآخرين غيره، وقد سمع من والده عن عائشة بنت مُجَّد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن مُجَّد بن قدامة (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م)، وشهرتها أبنه أبن عبد الهادي، وكتبها أم مُجَّد، (السخاوي، د.ت، ٧/١٥٥)، والشهاب بن حجي الدمشقي (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م) وأبن الشرائحي عبد الله بن ابراهيم (ت ٨٢٠هـ/١٤١٧م) وغيرهم (السخاوي، د.ت، ٧/١٥٥) وشرح المنهاج بشرحين سمى أكبرهما ارشاد المحتاج إلى توجيه المنهاج والآخر بداية المحتاج وعمل سيرة نور الدين الشهيد وصنف غير ذلك، وتصدى للإقراء فانتفع به الفضلاء ودرس بالمدرسة الظاهرية وهي من مدارس حلب، تقع في شرق منطقة الخاتونية، (النعيمي، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ١/٢٥٧)، والناصرية وهي من مدارس دمشق تقع شمال الجامع الاموي (النعيمي، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ١/٣٥٠) والتقوية وهي من مدارس دمشق، تقع في باب الفراديس (النعيمي، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ١/١٦٢)، والمجاهدية وهي من مدارس دمشق، تقع في منطقة باب الفراديس، وقفها الأمير مجاهد الدين أبي الفوارس أحد قادة الجيش في عهد الأمير نور الدين محمود، توفي في العام (١١٦٠هـ/١٥٥٥م) (ابن الفوطي، ١٩٦٣م، ص ٣٦١؛ النعيمي، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ١/٣٤٣)، والفارسية و سميت بالفارسية نسبةً إلى واقفها سيف الدين فارس الدوادار التمني في العام (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، المصدر نفسه، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ١/٣٢١)، وكذا في الشامية البرانية نيابة عن قاضي القضاة النجم بن حجي (ت ٨٣٠هـ/١٤٢٧م) وولي افتاء دار العدل في دمشق، وناب في القضاء من سنة تسع وثلاثين حتى مات، وصار بآخره فقيه الشام بغير مدافع عليه مدار الفتيا والمهم من الأحكام وعرض عليه قضاء بلده فأبى؛ يقول شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م): "لقيته بدمشق وسمعتُ كلامه وكان من سروات رجال العالم علماً وكرماً وأصاله وعراقة وديانة ومهابة وحزامة ولطافة وسؤدداً؛ وللشاميين به غاية الفخر" (د.ت، ٧/١٥٦)، كما قال عنه: "وقرأ على شيخنا سنة ست وثلاثين بدمشق الاربعين المتباينات له، وارتحل إلى القاهرة بعد أبيه وحضر مجلس شيخنا وتناظر هو والبرهان بن ظهيره بين يديه فكان الظفر فكان الظفر للبرهان واستنابه السفطين وبرع في الفقه استحضاراً ونقلًا" (د.ت، ٧/١٥٥). توفي يوم الخميس في ١٢ رمضان من العام ٨٧٤هـ/١٣٧٣م ودفن في اليوم التالي في مقبرة الباب الصغير عند أسلافه بعد الصلاة عليه بعدة أماكن وكانت جنازته حافلة وكثر الثناء عليه، وكان من خيرة علماء عصره (السخاوي، د.ت، ٧/١٥٥-١٥٦).

٢. معلومات عن الكتاب:

يعد كتاب "الكواكب الدرية في السيرة النورية" من أهم المصادر في دراسة الدولة الزنكية بشكل عام وسيرة الملك العادل نور الدين محمود بشكل خاص، ومن ثم كان للموصل نصيب كبير في نصوص الكتاب، إذ أن الملك العادل هو الأبن الثاني للأمير عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية في الموصل وحلب، ووريثه في حكم حلب، وهو الذي أكمل مبادئه والدة في توسيع رقعة الدولة الزنكية وجهاده ضد الصليبيين وإيقافهم ومنعهم من التقدم واحتلال مصر وبلاد الشام والجزيرة، بل إن الكتاب ضم بعض المعلومات التي لم تكن موجودة في الكثير من المصادر المختصة بدراسة الدولة الزنكية بالرغم من أن مؤلفه ابن قاضي شهبة لم يكن قريب عهد من الدولة الزنكية وحكمها ومن ذلك العام الذي ولد فيه الملك العادل نور الدين محمود وهو العام (٥١١هـ/١١١٧م).

بلغ عدد صفحات الكتاب ٢٣٠ صفحة تمكن خلالها القاضي ابن أبي شهبة من استيفاء سيرة الملك نور الدين محمود فيها، بتضمينها ٣٦ نصاً عن الزنكيين في الموصل، فالكتاب من كتب السيرة والتراجم لكنه يحوي معلومات قيمة عن الدولة الزنكية ورجالها سواء في حلب أو دمشق أو الموصل وما يخص العلاقات بين المدن المذكورة، إلا إن ما يهم الباحث النصوص الخاصة بالزنكيين في الموصل والموجودة في الكتاب لكونه من الكتب التي تؤرخ لحقبة مهمة من تاريخ الدولة الزنكية.

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب له تحقيقان: الأول صادر في بيروت في العام ١٩٧١م تحت عنوان "الكواكب الدرية في السيرة النورية" بتحقيق محمود زايد. والآخر: نشرته دار الفتح بعَمَّان في العام ٢٠٢٢م تحت عنوان "الدر الثمين في سيرة نورالدين" بتحقيق أحمد مرشد؛ اعتمد المحقق فيه على تسع نسخ خطية.

٣. مصادره:

لقد استعان ابن قاضي شهبة بعدد من المصادر، منها ما أرخ للتاريخ الإسلامي العام، ومنها كتب التاريخ المحلي، ومنها ما اختص بالدولة الزنكية، ومن أهمها:

— تاريخ أبي يعلى حمزة بن القلانسي المعروف بذييل تاريخ دمشق، أفاد منه ابن قاضي شهبة بروايات عن الملك نور الدين محمود حتى العام (٥٥٥هـ/١١٦٠م) وهو العام الذي توفي فيه ابن القلانسي.

— التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل لعز الدين ابن الأثير، أفاد منه ابن قاضي شهبة فيما يخص سيرة الملك نور الدين محمود وعلاقته بالموصل.

— الكامل في التاريخ لعز الدين ابن الأثير، أفاد منه ابن قاضي شهبة في التسلسل التاريخي للأحداث، فضلاً عن عدد من الروايات.

— النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لبهاء الدين ابن شداد، أفاد منه ابن قاضي شهبة فيما يخص أخبار مصر بعد أن أرسل الملك نور الدين بن زنكي وزيره أسد الدين شيركوه إليها لحماية العاضد الفاطمي من تمرد وزيره شاوور السعدي.

—مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، أفاد منه ابن قاضي شهبة في التحقق من تواريخ الأحداث، وعددٍ من الروايات الخاصة بالدولة الزنكية.

— الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي، أفاد منه ابن قاضي شهبة في أخبار الملك نور الدين محمود وأخبار الزنكيين بالموصل.

— البداية والنهاية لعماد الدين ابن كثير، أفاد منه ابن قاضي شهبة في التسلسل التاريخي للأحداث فضلاً عن بعض الروايات الخاصة بالزنكيين في الموصل.

— السيرة الصلاحية لأبن أبي طي، أفاد منه ابن قاضي شهبة فيما يخص أخبار صلاح الدين الأيوبي.

ومن الواضح أهمية كتابي الكامل في التاريخ والروضتين لدى ابن قاضي شهبة، فكثيراً ما كان يذكر عبارة راجع الكامل ويذكر الجزء والصفحة (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١م، ص ١٥٨)، أو هكذا في الكامل (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١م، ص ١٥٩)، وكذلك كتاب الروضتين إذ كان يقول: "كذا في الروضتين". ومن الطبيعي أن يهتم بأخبار الروضتين لأنه كتابٌ اختص بالسيرتين النورية والصلاحية أي سيرة نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، وكان يستشهد في بعض الأحيان بأقوال بعض المؤرخين كالسمعاني وابن خلكان.

#### ٤. أسلوبه:

كان من أسلوبه المقارنة بين المصادر من خلال نصوصها، إذ يقول إن النص في المصدر الفلاني يختلف عن النص في المصدر الفلاني (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١م، ص ١٦٠)، وقد اتسم بانفراداً بمعلوماتٍ خاصة عن الملك نور الدين محمود؛ إذ كان هو فقط من ذكر أن نور الدين محموداً ولد في اليوم الفلاني والشهر الفلاني والوقت الفلاني من العام الفلاني في حلب ودقق في تفاصيل ولادته من خلال النص الآتي: "ولد نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي السلجوقي مولاهم يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب". فهنا ذكر الزمان والمكان وجمع بينهما وحده ما يدل على اهتمامه بأخبار الملك نور الدين محمود (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١م، ص ١٥)، والمعلومة خاصة به إذ ذكرها بأسلوبه ولم يذكر من أي مصدر نقلها، وبالرغم من أن ابن عساكر سبقه في ذكر تاريخ الولادة لكنه لم يذكر المكان ولا اليوم فقط ذكر العام، وكذا ابن الأثير في التاريخ الباهر (ابن الأثير، ١٩٦٣، ص ٢٠).

وقد تضمنت النصوص في البحث الفئة المنتخبة وهم الزنكيون في الموصل من خلال الجوانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي، حين يذكر خيراً ينسبه إلى السنة، قائلاً: "وفيها حدث كذا"، أي في السنة الفلانية حدث الخبر الفلاني، وهو في هذا يسير على نهج مؤرخي التاريخ الإسلامي العام.

ومن منهجه أنه في بعض الأحيان إنه كان يذكر المعلومة وينسبها على المصدر بشكل مباشر كقوله: " قال الذهبي: ثم لم يتم ذلك ومقت الناس زكي على قبيح فعله"، إلا أن المحقق لم يقيم بتخريج النص المذكور من مصدره ويضعه في الهامش.

وفي نصوصٍ أخرى كان يذكر الخبر نقلاً عن سبقة من المؤرخين كقوله: " قال ابن الأثير والسبب في هذا الفتح... "(ابن الأثير، ١٩٦٣، ص١٦٦). ومن أسلوبه أيضاً استعمال الإسناد في ذكر الخبر ولكن بشكلٍ نادرٍ فيما يخص الزنكيين في الموصل (ابن الأثير، ١٩٦٣، ص١١٦).

لقد كان الغرض من حديث ابن قاضي شعبة عن الزنكيين في الموصل وسيلة لإظهار أمرين: الأول: من كان يعاصر الملك نور الدين من الزنكيين في الموصل.

الثاني: انعكاس الجانب الإيجابي من حكم نور الدين في الشام وحلب على الموصل والجزيرة.

وبناءً على ما تقدم يمكن اعتبار الكتاب خلاصة لأخبار الكتب التي اهتمت بالدولة الزنكية، لا سيما فيما يخص العلاقات بين الموصل وحلب عن طريق نصوصه الخاصة بالموصل سواء أكان المؤلف يهدف الى ذلك أم لا.

#### ثانياً. الجانب السياسي.

لقد كان للجانب السياسي النصيب الأكبر في الأخبار التاريخية بكتاب الكواكب الدرية ومعظم الكتب الأخرى التي ألفت في التاريخ الإسلامي، باستثناء الكتب المختصة بالجوانب الأخرى، وقد كان لكتاب الكواكب الدرية توجه إلى أخبار الزنكيين في الموصل ما يعني اهتمامه بهذا الجانب بشكلٍ أكبر بالمقارنة مع الجوانب الأخرى والتي ستطرق إليها. وفي الوقت نفسه كان الغرض من الخبر تحديد الحقب الزمنية التي تزامنت مع ولاية الملك نور الدين محمود، فعن بداية الدولة الزنكية في العام (١١٢٧هـ/١١٢٧م) يتناول تفويض السلطنة السلجوقية للأمير عماد الدين زكي بن آق سنقر بن عبد الله بن ترغان، ولد في العام ١٠٨٥هـ/١٠٨٥م، لأن عمره كان عشر سنواتٍ عند مقتل والده في العام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، ثم احتضنه اعوان والده ومنهم بركياروق صاحب الموصل، وعماد الدين هو مؤسس الدولة الزنكية، أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين مُجَّد بن مُجَّد الشيباني (ابن الأثير، ١٩٦٣، ص ١٥) والد الملك نور الدين محمود تولى شحنة بغداد والشحنة: يطلق على المرابط من الجند في البلد من اولياء السلطان لضبط أهله، ابن الشحنة، ١٩٨٤م، ص١٦). وبعد وفاة والي الموصل عز الدين مسعود بن آق سنقر (البرسقي) في العام (١١٢٧هـ/١١٢٧م) تولى عماد الدين زكي إمارة الموصل وأقام الدولة الزنكية فيها (ابن قاضي شعبة، ١٩٧١، ص٩٢)، ومن بعدها قيامه بامتلاك حلب وما حولها في العام (١١٢٨هـ/١١٢٨م)، ثم فتحه لجزيرة ابن عمر ومدينة إربل، من خلال قوله: " وفيها فتح عماد الدين زكي جزيرة ابن عمر ثم مدينة أربل، وعظم شأنه، واتسعت دولته (ابن قاضي شعبة، ١٩٧١، ص ٩٣). وبعدها وبشكلٍ مباشر وعند دخول العام (١١٢٩هـ/١١٢٩م) يستمر بالكلام عن نشاطات الأمير عماد الدين زكي وجهاده ضد الحملات الصليبية، فعن امتلاكه للمدن يقول: " فيها [أي في العام ٥٢٣هـ] ملك عماد الدين زكي سنجار والخابور والرحبة،

وافتح نصيبين" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٩٤)، أما عن جهاده فيقول: " وفيها أظهر عماد الدين زنكي أنه يريدُ جهاد الفرنج" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٩٤). وفي الحقيقة كان الأمير عماد الدين زنكي قد بدأ مشروعهُ الجهادي قبل هذا العام، إذ يذكر أبن الأثير أنه كان مقاتلاً شجاعاً منذ عهد أمير الموصل مودود بن التوتنكين الذي حكم خلال الأعوام (٥٠٢ - ٥٠٧ هـ / ١١٠٩ - ١١١٤ م)، وقد قال عن اتصاله بمودود: " فلما استقر الأمير مودود بالموصل، واتصل به الشهيد عماد الدين الذي عرف له ذلك، مضافاً إلى منزلة أبيه، ولما رأى منه العقل والشجاعة، فراد في إقطاعه وشهد معه حروبه" (أبن الأثير، ١٩٦٣، ص ١٧)، وربما كان أبن قاضي شهبة يقصد أنه أظهر الجهاد بعد توليه منصب أمير الموصل.

ومن الجدير بالذكر أنه وفي بعض النصوص لم يكن أبن قاضي شهبة يظهر تعاطفه مع الامير عماد الدين زنكي وذلك من خلال الحديث عنه، ومن ذلك: " وأرسل إلى تاج الملوك بوري يستجده، فبعث عليه عسكرياً بعد أن أخذ عليه العهد والميثاق، وأمر ولده سونج أن يسير إليه من حماة ففعل. فأكرمهم عماد الدين زنكي وطمأنهم أياماً ثم غدر بهم" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٩٤). وكذلك قوله: " ومقت الناس زنكي على قبيح فعله" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١ ص ٩٤).

كما تطرق أبن قاضي شهبة إلى علاقة زنكي الموصل بالخلافة، ومن خلال ذلك يظهر موقف عماد الدين زنكي تجاهها، ففي العام (١١٣٦ هـ / ١١٣٠ م) وحينما ساءت العلاقة بين الخليفة العباسي الراشد بالله (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ / ١١٣٤ - ١١٣٥ م) و السلطان السلجوقي مسعود بن محمد (٥٢٧ - ٥٤٧ هـ / ١١٣٣ - ١١٥٣ م)، استدعى الخليفة الراشد الأمير عماد الدين زنكي إلى بغداد فلبى نداءه وقدم إليه، واقترح إليه قدومه معه إلى الموصل إلى حين صلاح الحال بين الأثنين، و ظهر ذلك من خلال النص الآتي: " ثم استنهض الخليفة الأمراء، وأرسل إلى عماد الدين زنكي فجاء إليه والتفت عليه خلائق. وجاء في غضون ذلك السلطان داود بن محمود بن محمد بنملك شاه، فخطب له الخليفة ببغداد وخلع عليه، وبايعه على الملك. فتأكدت الوحشة بين الخليفة والسلطان جداً، وبرز الخليفة إلى ظاهر بغداد، ومشى الناس بين يديه، كما كانوا يعاملون به أباه، وخرج السلطان داود من جانب آخر. فلما بلغهم كثرة الجيوش مع السلطان مسعود حسن عماد الدين زنكي للخليفة أن يذهب معه إلى بلاد الموصل" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٠٤)، بل زاد الأمر بالسلطان مسعود إلى أن ينهب ممتلكات دار الخلافة مما اضطر الخليفة الراشد بالله أن يتوجه إلى الموصل يصحبه الأمير عماد الدين زنكي، فقال أبن قاضي شهبة، : " وأخذ مسعود جميع ما في دار الخلافة سوى أربع أفراس وثمانية بغال برسم الماء. وسار الراشد صحبة زنكي ودخل الموصل" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٠٥). أما في العام التالي (١١٣٧ هـ / ١١٣١ م) وبعد اتفاق السلاجقة والأمير عماد الدين زنكي مع الخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ / ١١٣٥ - ١١٦٠ م) غادر الخليفة الراشد الموصل وفق شروط ذكرها أبن قاضي شهبة قائلاً: " فيها خرج الراشد من الموصل نحو مراغة وهي بلدة مشهورة من بلاد أذربيجان ابتناها الخليفة الأموي مروان



بن الحكم، (الحموي، د.ت، ١٠٩/٥)، وسببه ما بلغه من انتظام الحال بين أتاكك زككي وبين الخليفة المقتفي والسلطان مسعود على ضياع قررت له ببغداد، على أن يُخطب له في البلاد التي تحت يده في الموصل والشام، على أن لا يُكلف الحضور عند السلطان ولا يزور ولا يزار" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٠٦).

فمن خلال هذا النص يوضح أبن قاضي شهبة أن العلاقة بين الخليفة العباسي والأمير عماد الدين زككي كانت جيدة لدرجة مساندة الثاني للأول عند الحاجة.

أما عن العلاقة بين الأمير عماد الدين زككي والسلطنة السلجوقية ذكر أبن قاضي شهبة الأزمة التي حدثت بين السلطان السلجوقي مسعود والأمير عماد الدين زككي في العام (١١٤٤/هـ ١١٤٤م)، قائلاً: " فيها عزم السلطان مسعود على قصد الموصل والشام لوحشة وقعت بينه وبين عماد الدين زككي. فتزددت الرسل بينهما حتى استقر الحال على مائة ألف دينار يحملها زككي للسلطان، دفع إليه منها عشرين ألف دينار. ثم إن الأمور تقلبت، وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان، فاحتاج إلى مدارات زككي فأطلق له الباقي من المال إستمالةً له" (المصدر نفسه، ١٩٧١، ص ١١٥). وهنا تظهر قوة أمير الموصل عماد الدين زككي ومكانته السياسية لدى الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية. وعن استئناف الحملات العسكرية التي قام بها الأمير عماد الدين زككي ضم الكتاب نصوصاً عديدة، فعن حملات العام (١١٤٣/هـ ١١٤٣م) قال أبن قاضي شهبة عن بلاد الهكارية: وتقع في شمال العراق وتحديداً في مدينة دهوك، (أبن الأثير، ١٩٦٣، ص ٦٤): " فملك تلك البلاد وبنى هناك قلعةً عظيمة سماها القلعة العمادية. وفيها حُطب للأتابك زككي في آمد. وفيها أخذ عانة وهي بلدة تقع بين الرقة وهيت من أعمال الجزيرة، يشرف على الفرات، وبه قلعةً حصينة (الحموي، د.ت، ٤ : ٧٢) وحديثة". إلا أن هذا النص يحوي معلومةً مختصرة، فهو يعطي الخبر عن بناء قلعة العمادية بشكلٍ مختلفٍ عما ذكره أبن الأثير، إذ قال أبن الأثير: " فلما بلغها أتاكك الشهيد حصر قلعة الشعباني وهي من أعظم قلاعها واحصنها فملكها وخرّبها. وأمر ببناء قلعة العمادية عوضاً عنها" (١٩٦٣، ص ٦٤). هذا عن قلعة العمادية. وقال في نصٍ آخر: " وفيها ملك عماد الدين زككي عدة بلادٍ من ديار بكر، وملك مدينة المعدن الذي يعمل منه النحاس من أرمينية، ومدينة حران، وأخذ من أعمال ماردين عدة مواضع" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١١٥). وعن تحركاته العسكرية في العام (١١٤٤/هـ ١١٤٤م)، قال: " وفيها فتح الأتابك زككي الرها، وكانت مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً. وكانت الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ...." (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١١٥)، ويكمل النص ولكنه يصف فيه مدناً أخرى، أما عن فتح الرها فيكمل الحديث في نصٍ آخر، وهنا يظهر لأول مرة في أخباره عن الزنكيين في الموصل أسلوب الإسناد، إذ يقول: " قال أبن الأثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من العلماء العاملين الزاهدين في

الدنيا المنقطعين عنها وله الكرامات الظاهرة. ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يوم ذلك، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور عنده من الأرتياح ما لم يروه أبداً، فلما قعد معهم قال لهم: حدثنا بعض إخواننا أن الأتابك زنكي فتح مدينة الرها وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد اليوم وبقي يردد القول مراراً فضببطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح... (١٩٧١، ص ١١٦-١١٧).

فمن خلال هذا النص يصور ابن قاضي شهبة الخبر تصويراً موثقاً مع الإسناد مما يؤكد أهميته لديه فضلاً عن أهميته لدى المسلمين. بعد ذلك كان الخبر عن استشهاد الأمير عماد الدين زنكي في العام (١١٤٧/٥٤١م) منقولاً عن ابن الأثير من خلال النص الآتي: " وفيها قُتِلُ الأتابك عماد الدين زنكي بن آق سنقر رحمه الله تعالى. قال ابن الأثير: كان يحاصر قلعة جعبر، فبينما هو نائم دخل عليه نفرٌ من مماليكه فقتلوه غيلةً ولم يجهزوا عليه، وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك نفر إلى القلعة، صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه، فأدركه أوائلهم وبه رمق، حدثني والدي عن بعض خواصه، قال: أدركته وهو في السياق، فحين رأيته ظن أنني أريد قتله، فأشار إليّ بإصبعه السبابة، فوقف من هيبته، وقلت له يا مولانا من فعل بك حتى أقتله؟ فلم يقدر على الكلام، وختم الله بالشهادة أعماله" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١١٩). وفي نصٍّ عن وصفه قال: " كان زنكي حسن الصورة أسمى مليح العينين طويل القامة، ليس بالطويل البائن. وكانت سيرته من أحسن سير الملوك، وكان من أكثرها حزمًا وضبطاً للأمر، وكانت رعيته في أمنٍ شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٢٠). أما عن شمائله فقد قال: " قال ابن الأثير: حدثني والدي قال: قدم الشهيد أتابك زنكي إلينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين، وكان زمن الشتاء، فنزل بالقلعة، وترك العسكر بالخيام، وكان من جملة أمرائه عز الدين أبو بكر الديبسي— وهو من أكبر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده— فدخل الديبسي البلد ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها، فاستغاث اليهودي إلى زنكي وهو راكب، فسأل عن حاله فأخبر به وكان الشهيد واقفاً والديبسي إلى جانبه وليس فوقه أحد، فلما سمع الأتابك ذلك الخبر، نظر إلى الديبسي نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقري ودخل البلد، وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد، ولم تكن الأرض تحتل الخيام عليها لكثرة الوحل والطين، قال: فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته، فلما رأوا كثرتهم جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها وينصبوا الخيام، وخرج إليها من ساعتها، وناهيك بهذا سياسةً وإنصافاً" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٢١). وعن زهده وحث أعوانه على الزهد قال: " وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: مهما كانت البلاد لنا فاي حاجة لكم في الأملاك فإن الإقطاعات تغني عنها. وإن خرجت البلاد من أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوا أملاكهم" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٢١).

وكان هذا الخبر هو الأخير عن الأمير عماد الدين زنكي، في العام (١١٤٧/٥٤١م). أما بعد ذلك فقد بدأ ابن قاضي شهبة بذكر بداية توزيع مناطق حكم الأمير عماد الدين زنكي على أبنيه سيف الدين غازي الذي تولى الموصل ونور الدين محمود الذي تولى حلب ثم الشام كله وقيام الدولة النورية، إذ قال: " وفيها لما قتل زنكي سار أسد الدين شيركوه من ساعتِه وقصد نور الدين، وقال له: " أنا اعلم أن الوزير جمال الدين [جمال الدين الأصفهاني، وزير الأمير قطب الدين مودود، وكان من خيرة مستشاريه، ووالده الكامل بن علي كان أديباً مشهوراً ذومكانة عالية إلى درجة تنافس الملوك والوزراء والسلاطين على استخدامه] (أبن الأثير، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ٩ / ٤٧٠-٤٧١) قد أخذ عسكر الموصل وعزم على تقديم أخيك سيف الدين غازي وقصده إلى الموصل. وقد رأيتُ أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسي مملكتك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام. ثم أخذه وسار في خدمته وسلمه قلعته.. " (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٢٢).

بعد ذلك بدأ بذكر نشاطات الملك نور الدين محمود في دولته، ولا سيما نشاطاته العسكرية والتي كان منها ما هو مشترك مع أخيه سيف الدين أمير الموصل وأولها تحرير الرها الثاني في العام (١١٤٧/٥٤١م)، بعد أن هجم عليها الصليبيون فور استشهاد عماد الدين زنكي، إذ قال عن ذلك: " وفيها وردت الاخبار أن ابن جوسلين: الكونت جوسلين الثاني دي كورتناي: **Joscelin II de Courtenay**، وهو من مشاهير القادة الصليبيين، (أبن الأثير، الكامل، ٩/٤٦٨) جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفله بموافقة من النصاري المقيمين بها، فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين. فنهض نور الدين محمود في عسكره ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة آلاف فارس، ووقفت الدواب في الطرقات من شدة السير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم، وقتل من أرمن الرها و النصاري من قتل، وانهرم ابن جوسلين بنفسه، ومحق السيف كل من ظفر به من نصاري الرها، واستخلص من كان أسير من المسلمين... " (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٢٣). ولكنه في هذا النص لم يذكر دور زنكي الموصل في هذه المعركة علماً بأن لهم دوراً فيها، وقد ذكره مؤرخون الآخرون ومنهم ابن الأثير الذي قال عن تحرير الرها: " وكان من بالقلعة قد أرسلوا إلى الموصل يعرفون سيف الدين الخبر، فوصل القاصد إلى ولاية الموصل، فلقي عز الدين أبا بكر الديبسي، وقد سار إلى الجزيرة لبتسلمها إقطاعاً، فسلك طريق البقاء متصيداً، فلقي القاصد فأخبره خبر الرها، فترك عز الدين قصد الجزيرة وسار نحو الرها، وأرسل إلى سيف الدين قاصداً مستريحاً ينهى إليه الحال، ويطلب منه المدد، فجهزت العساكر من الموصل، وجد عز الدين في السير، فوصلها وقد ملكها نور الدين واستقر فيها.. " (أبن الأثير، ١٩٦٣، ص ٨٧). أما العمل العسكري الثاني الذي قام به سيف الدين غازي مع نور الدين محمود فهو حماية دمشق من حملة الألمان وهي الحملة الصليبية الثانية، بقيادة كونراد الثالث امبراطور المانيا (ابن الأثير، ١٩٦٣، ص ٨٨) في العام (١١٤٩/٥٤٣م)

حينما استنجدت دمشق بأميري الموصل وحلب، وقد ذكره ابن قاضي شهبة من خلال النص الآتي: " ثم إن الفرنج تقدموا وخيموا بالميدان الأخضر، وضايقوا البلد حتى نزلوا على أبوابه، وكان أنر وهو معين الدين بن عبد الله المدبر لأمور دمشق (ابن الاثير، ١٩٦٣، ص ٥٨؛ ابن العديم، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م، ٢ : ٢٦١) قد كاتب سيف الدين غازي ونور الدين أبني زنكي. فلما كان اليوم الخامس وصل سيف الدين غازي في عشرين ألف ونزل بجمص، ووصل نور الدين إلى حماه، وفرح المسلمون بذلك،.." (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٢٧-١٢٨). وعن موقعة أخرى شاركت فيها الموصل في العام (١١٥٠هـ/١١٥٠م) ذكر ابن قاضي شهبة النص الآتي: " فيها تحركت الفرنج من الساحل ليقصدوا بلاد حلب، فسار نور الدين بعساكره، وجمع كثيراً من التركمان، وكتب إلى معين الدين يستنجده، فبعث إليه الأمير مجاهد الدين بزّان بن مامين نائب مدينة صرخد صرخد: وهي قلعة حصينة ملاصقة لحوران من أعمال دمشق، (الحموي، د.ت، ٤٥٥/٣) في عساكر دمشق، وجاءت عساكر أخيه سيف الدين، وسار إلى أنطاكية.." (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٣٠). وهذا هو النص الأخير الذي ذكره عن الموصل في عهد أميرها سيف الدين غازي مع أخبار أخرى كانت متزامنة تاريخياً مع أخبار الملك نور الدين محمود ألي أن توفي الأمير سيف الدين غازي، فذكر وفاته في أحداث العام (١١٥٠هـ/١١٥٠م)، وقام بمدحه ووصفه بأوصافٍ جليّة، ومن ذلك: " وفيها توفي غازي بن زنكي صاحب الموصل، وكان عمره أربعاً وأربعين سنة، وكان من أحسن الناس صورة، ودُفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل، وخلف ولداً ذكراً أخذه عمه نور الدين محمود، فرباه وأحسن إليه، فلم تطل أيامه، ومات شاباً لم يعقل. وكان سيف الدين شجاعاً كريماً ذا عزم وحزم، وهو أول من حمل على رأسه سنجقاً من الأتابكية أصحاب الأطراف، فإنه لم يكن فيه من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية. وهو أول من أمر عسكره ألا يركب أحدهم إلا والسيف في وسطه، فلما أمر هو بذلك اقتدى به أصحاب الأطراف، ودُفن بالمدرسة الأتابكية التي بناها ووقفها على الحنفية والشافعية في الموصل، وبنى بها أيضاً خانقاه" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٣١).

وبعد وفاة سيف الدين غازي، خلّفه أخوه قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، فقال ابن قاضي شهبة: " وتملك بعد الموصل أخوه قطب الدين مودود" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٣٢). وبعد ذلك أصبحت سنجار مطمحاً للأخوين نور الدين محمود وقطب الدين مودود ورغب الأثنان في امتلاكها، إذ قال: " قال ابن الأثير: ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية كان أخوه نور الدين بحلب وهو أكبر من قطب الدين. فكاتبوه بعض الأمراء وطلبوه إليهم، منهم المقدم والد شمس الدين بن المقدم وهو حينئذٍ دزدار سنجار فسار نور الدين من حلب في سبعين فارس من أكابر دولته، منهم أسد الدين شيركوه، ومجد الدين بن الداية، فسلم إليهم محمد بن المقدم سنجار" (ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص ١٣٣). ودزدار لفظٌ عجميٌّ معناه حافظ القلعة أو والبها (Warden)، مكوّن

من "دُزّه" - ويُقال "دِزّه" - أي القلعة، و"دار" الحافظ، (ابن خلكان ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م، ٧ / ١٤٢؛ ابن واصل، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م / ٨).

فهذا الإجراء أثار استياء قطب الدين إذ كان يرغب بامتلاك سنجار؛ في الوقت الذي انجاز ابن المقدم صاحب سنجار إلى الملك نور الدين وسلمها له لأن ولاءه له وليس لقطب الدين (ابن الاثير، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ٩ : ٣٦٠). لكن الملك نور الدين محموداً بر امتلاكه لسنجار بكونه الأكبر من الإخوة، وأن فريقاً من أعيان سنجار راسلوه وأبلغوه رغبتهم بقدمه إلى سنجار وامتلاكها (ابن واصل، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م، ١ / ١١٨). وتجنباً لوقوع فتنة بين أمير الموصل وحلب بسبب سنجار، سعى الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الأمير قطب الدين مودود لإقامة صلح بين قطب الدين ونور الدين، إذ سار جمال الدين إلى الملك نور الدين محمود واتفق معه على الصلح على ان يأخذ الملك نور الدين حمص وما بسنجار من أموال، ويأخذ الأمير قطب الدين سنجار (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٣٣-١٣٤).

أما عن اشتراك الموصل في جهاد الملك نور الدين محمود وحملاته العسكرية فقد استعان الملك نور الدين محمود بأخيه قطب الدين مودود لتحرير حصن حارم في العام (٥٥٩هـ / ١١٦٤م)، وفي المعركة نفسها برز دور زين الدين علي كوجك بن بكتكين نائب لقلعة الموصل في عهد الشهيد عماد الدين زنكي ومن بعده أبنيه سيف الدين غازي وقطب الدين مودود (أبن الاثير، ١٩٦٣، ص ٨٦) برز دوره كقائد لقوات الموصل ونائب قلعتها وشجاعته وفنه الحربي بعد أن نجح في تحقيق مناورة كانت سبباً في هزيمة الصليبيين وانتصار المسلمين فضلاً عن أهمية تلك المعركة لقوات الموصل وحلب من الناحيتين السياسية والاقتصادية إذ كان للموصل نصيب من عوائد المعركة، وقد صور أبن قاضي شهبة ذلك من خلال النص الآتي: " والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما أصابه بالبقية من الفرنج ما أصابه، بعث إلى أخيه قطب الدين بالموصل وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين ألي بماردين وغيرهم، وطلب منهم النجدة. فبادروا وجاءوا إليه بأنفسهم، إلا صاحب مارددين، فإنه جهز عساكره، وتأخر هو لعذرٍ منعه" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٦٦).

ولم يكتفِ أبن قاضي شهبة بهذا النص بل أتبعه بنص آخر يصور فيه تفاصيل المعركة من خلال قوله: " فلما اجتمعت العساكر على مدينة حلب، سار بهم نور الدين إلى حارم ونازلها، وبلغ الفرنج الخبر فحشدوا وجاءوا في ثلاثين ألف فارس وفيهم البرنس صاحب أنطاكية، والقمص صاحب طرابلس، وأبن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك معهم، وهو رئيس الروم ومقدمها. وكان معهم من الرجال ما لا يحصى" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٦٧). وأراد أبن قاضي شهبة تصوير دور الموصل القتالي في تحقيق النصر من خلال هذا النص: " فلما تقاربوا واصطفوا للقتال، بدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبما عسكر حلب وفخر الدين، فاندفعوا بين أيديهم، وقصدوا بذلك أن يبعثوا الفرسان عن الرجالة، فتبعتهم الفرسان، فعطف حينئذ زين الدين في عسكر

الموصل على الرجالة فحصدتهم بالسيف. وعادت خيالتهم، ولم يمضوا بالطلب خوفاً على رجالتهم من العطف، فصادفوا رجالتهم بين قتييل وأسير، ولم يبقَ منهم قليلٌ ولا كثيرٌ" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٦٧).

وفضلاً عن تصوير أحداث المعركة في هذا النص فقد اتضح دور الموصل في الإسراع بتحقيق النصر من خلال خطة عسكرية بارعة نفذها زين الدين علي كوجك الذي قاد حملة الموصل. أما عن ذكره لاشتراك الموصل في فتح حارم؛ فذلك لتوضيح عمق العلاقات بين الزنكيين في الشام والموصل، بل إن الملك نور الدين محموداً لم ينسَ نصيب الموصل من الغنائم، وأشار أبن قاضي شهبة إلى ذلك من خلال كلامه عن انتصار الملك نور الدين محمود في حارم قائلاً: "وعاد إلى حلب بالأسرى والغنائم، وامتألت حلب منهم، وبيع الأسير بدينار، وفرقهم نور الدين علي العساكر، وأعطى أخاه وصاحب الحصن الأموال العظيمة والتحف الكثيرة، وعادوا إلى بلادهم" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٦٧).

فهذا النص خير دليل على حسن العلاقات بين الموصل وحلب وقطب الدين مودود ونور الدين محمود.

أما في العام (١١٦٧/٥٦٢م) اشتركت قوات الموصل مع قوات الشام في فتح حصون عديدة، كحصن العريمة، وحصن صافيتا، وغيرها فتمكنوا من تحريرها وغنموا منها الكثير. ولقد ذكر ذلك قائلاً: " وفيها دخل نور الدين ومعه أخوه قطب الدين صاحب الموصل، فاجتازوا على حصن الأكراد أو قلعة الحصن: Crac des Chevaliers، وهو حصنٌ منيعٌ على الجبل الذي يُقابلُ حصن من جهة الغرب (ألموي، د.ت، ٢ / ٢٦٤) ، وهو للدواوية (Templars) الذين نذروا أنفسهم لقتال المسلمين وامتنعوا عن الزواج، ولم تكن لديهم طاعة لأحد، واطلق عليهم فرسان المعبد ، وكانوا جميعاً يملكون الحصون والأساطيل، ولهم حق المعاهدات، وجباية الضرائب، ووصفوا بأنهم دولة داخل الدولة، وكانوا موضع احترام ملك بيت المقدس] ( ابن الفرات ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ٢ : ٣٨). فلم يحاصروه لخصائمه وصعوبته، وإنما أخذوا جميع ما في قرأه ونواحيها، ثم ساروا إلى حصون لهم ففتحوها: بعضها بالسيف وبعضها بالأمان، منها حصن العزيمة [المقصود العريمة] وحصن صافيتا، وأسروا وغنموا. ثم توجهوا إلى قلعة هونين، فلما قربوا منها أخلاها أهلها وأحرقوها. فلما وصل إليها نور الدين، لم يجد فيها فائدة، فأمر بخربها وهدم سورها، وعزم على منازلة بيروت، فوقع خلفاً في العسكر، فرجع. وتوجه قطب الدين إلى بلاده، وأعطاه نور الدين الرقة، فاجتاز عليها في طريقه ورتب نوابه بها" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٧٣).

بعد هذا النص توقف أبن قاضي شهبة عن ذكر الزنكيين في الموصل لأن الأحداث كانت تتطلب ذلك، ولكنه عاد إلى الموصل بذكر خبر وفاة أميرها قطب الدين مودود، و ذكر ذلك في أخبار الملك نور الدين محمود ضمن العام (١١٧٠/٥٦٥م) قائلاً: " أما الشرق فوفاة أخيه قطب الدين مودود بالموصل . . . " (أبن قاضي شهبة، ١٩٧٠، ص ١٨٩-١٩٠). وهنا تغيرت الأحداث من الجانب السياسي؛ إذ أصبحت الموصل تابعة لحكم الملك نور الدين محمود في العام (١١٧١/٥٦٦م) وذلك للسيطرة على الوضع السياسي فيها بعد وفاة أميرها قطب الدين مودود، وقد

كان ذلك لمساندة ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني بن قطب الدين مودود وأمير الموصل بعده، تزوج من ابنة عمه نور الدين بعد قدومه الى الموصل، (ابن خلكان، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م ، ٤ / ٥-٤) بعد توليه منصب أمير الموصل خلفاً لوالده قطب الدين، وذلك لأن فخر الدين عبد المسيح مستشار قطب الدين كان متسلطاً في رأيه على سيف الدين، فمن أهم أخبار الزنكيين في الموصل بعد وفاة أميرها، قدوم الملك نور الدين محمود إليها، وتخليص سيف الدين غازي الثاني من تدخل فخر الدين عبد المسيح ، ولتثبيت حكمه مع عدد من الإجراءات الإدارية فيها، إذ ذكر ابن قاضي شهبة في أحداث العام (٥٦٦هـ):

" فيها سار نور الدين إلى سنجار ففتحها، وهدم سورها بالمناجيق، وسلّمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي الثاني [الابن الأكبر لقطب الدين مودود، عُيّن أميراً على سنجار، ويعرف ب(صاحب سنجار)]، (ابن قاضي شهبة، ١٩٧٠، ٢: ٣٣٠)، ثم سار إلى الموصل. وكان بما سيف الدين غازي بن مودود- أخي نور الدين- باستخلاف من والده. وكان المتولي لأموره فخر الدين عبد المسيح، وهو المتحكم في المملكة، وليس لسيف الدين من الأمر إلا الأسم. وكان عبد المسيح هذا نصرانياً أظهر الإسلام، وكان يقال أن له كنيسة في جوف داره. وكان سيء الخلق، خبيث السريرة في حق المسلمين والعلماء خاصة. فراسل عبد المسيح نور الدين يسأله الرجوع وعدم التعرض للموصل، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته، وقال له: قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلا تدخل بيننا، وذكر له تهديداً كبيراً. وكان كل من في الموصل مع نور الدين، وكاتبوه بالوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه. فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقديره على سيف الدين، ويطلب الأمان لنفسه وإقطاعاً يكون له، فأجابه إلى ذلك، وقال: لا سبيل إلى إبقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام، فإني لم آت لأخذ البلد من أولادي، وإنما جئت لأخلص الناس منه، وأتولى أنا تربية أولادي. فاستقرت القاعدة على ذلك، وسلمت الموصل إليه. وسكن القلعة، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى قلعتها خادماً يقال له كمشتكلي [اداري عسكري من ممالك نور الدين، ومقرباً إليه]، (ابن الأثير، ١٩٦٣، ص ١٧٦)، وجعله دزداراً فيها، وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة الشرعية" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧٠، ص ١٩٠-١٩١). إن ابن قاضي شهبة في هذا النص لم يذكر الخبر كاملاً، فهذا النص يخص مراسلة فخر الدين عبد المسيح لإيلدكز صاحب أذربيجان عن طرق إرسال عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود أخو سيف الدين أمير الموصل، وخليفته، (ابن الأثير، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ٣٠/١٠) شقيق سيف الدين غازي إليه، فقام إيلدكز بتهديد الملك نور الدين محمود عن طريق رسول أرسله إليه وأمره بالرجوع عن الموصل، لكن الملك نور الدين محمود لم يأبه بكلام إيلدكز ووجه الكلام إلى رسول إيلدكز وليس إلى فخر الدين عبد المسيح قائلاً له: " قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلا تدخل [نفسك] بيننا، وعند الفراغ من اصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام، وأهملت الثغور، حتى بلغ الكرج وهم جماعة من النصارى يسكنون جبال القبق وبلد السرير، هكذا عرفهم الحموي)

معجم البلدان، ٤/٥٠٦ عليها، وبلت أنا بأشجع الناس الفرنج، وأخذت بلادهم، وأسرت ملوكهم فلا يجوزني أن اتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا الحفظ لما أهملت من بلاد الاسلام، وإزالة الظلم عن المسلمين" (أبن واصل، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ١: ١٩٢).

ولقد بارك الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٨٠م) محيي الملك العادل إلى الموصل، إذ أرسل إليه خلعة أعطاها لسيف الدين غازي الثاني هدية بمناسبة توليه منصب أمير الموصل، فقال أبن قاضي شهبة عن ذلك: " ولما كان يحاصر الموصل، جاءت خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخل الموصل خلعها على أبن أخيه سيف الدين غازي.."(أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٩١).

ومن الجدير بالذكر أن للموصل مكانة كبيرة في قلب الملك نور الدين محمود، وقد اتضح ذلك حين قدم إليها، فقد قال أبن قاضي شهبة: " وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً، وسار إلى الشام، فقيل له: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود، فقال: قد تغير قلبي فيها، فإن لم أفارقها ظلمت، ولمعنى آخر إنني ههنا لا أكون مرابطاً للعدو وملزماً للجهاد". كما ذكر أبن قاضي شهبة نقلاً عن أبن كثير نصاً يقول: " قال الشيخ عماد الدين بن كثير: إن نور الدين لما كان في آخر ليلة من إقامته بالموصل رأى النبي ﷺ في النوم وهو يقول له: طاب لك بلدك، وتركت الجهاد وقتال أعداء الله! فنهض من فورهِ إلى السفر، وما أصبح إلا سائراً إلى الشام.."(أبن كثير، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ١٢/٢٦٣: أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٩١-١٩٢).

أما في العام (٥٦٨هـ/١١٧٣م) فقد قام الملك نور الدين محمود بإرسال فيلاً وهدايا أخرى كان قد أرسلها إليه صلاح الدين الأيوبي من مصر، فقال أبن قاضي شهبة: " بعث صلاح الدين هدية إلى نور الدين فيها فيلاً وحملاً عتاي محطط كثوب عتاي، فأهدى نور الدين الفيل إلى أبن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحف الثياب والعود والعنبر، وجهاز الحمار العتاي إلى بغداد..."(أبن قاضي شهبة، ١٩٧٠، ص ٢١٦). وفي العام نفسه قام الملك نور الدين محمود بزيارته الثانية إلى الموصل، وزار فيه الجامع النوري وكان قد اكتمل بناؤه، فقال أبن قاضي شهبة عن ذلك: "وفيها سار نور الدين إلى الموصل وصلى في الجامع الذي بناه وسط البلد وتصدّق بمال كثير..."(أبن قاضي شهبة، ١٩٧٠، ص ٢١٦) فأحى الملك نور الدين زيارته إلى الموصل واستأنف جهاده، فقال عن ذلك: " وعاد نور الدين من الموصل، وقطع الفرات وقصد بلاد الروم، وفتح مرعش وبهنسا"(أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٢١٧). بعد ذلك ذكر أبن قاضي شهبة نصاً عن وفاة الملك نور الدين محمود في العام (٥٦٩هـ/١١٧٤م) قائلاً: " فلما كان يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من هذه السنة قبض إلى رحمه الله تعالى وقت طلوع الشمس عن ثمان وخمسين سنة، مكث منها في الملك ثمان وعشرين سنة، وصلى عليه بجامع القلعة، ودفن بالقلعة، ثم نُقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة بجوار الخواصين.."(أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٢٢٨-٢٢٩). أما أبنه الملك الصالح فقد ترك



دمشق وذهب على حلب بأمر أعوان والده، وقد ذكر ابن قاضي شعبة ذلك قائلاً: " ثم توجه الملك الصالح إسماعيل إلى حلب وأقام بها إلى أن توفي في سنة سبع وسبعين [وخمسمائة]" ( ابن قاضي شعبة، ١٩٧١، ص ٢٣٠).  
أما عن الزنكيين في الموصل بعد وفاة الملك نور الدين، فلم يعد حالهم كما كان في حياته، إذ كانت هيئته تظلمهم، وقد تغير حال الدولة الزنكية تماماً، فأصبح الصليبيون يهددون حدود الدولة، وكان صلاح الدين الأيوبي يطمح في السيطرة عليها، وكان كبار الدولة الزنكية يريدون أن يحل سيف الدين غازي الثاني مكان عمه الملك نور الدين ويأتي إلى دمشق ليتسلم السلطة فيها ولكنه رفض ذلك، وهذا أمرٌ طبيعي؛ إذ إن الملك نور الدين محموداً هو أشجع الزنكيين بعد والده عماد الدين، وقد ذكر ابن قاضي شعبة وضع الزنكيين بعد وفاته في هذا النص: " وعزم الفرنج على قصد دمشق وانتزاعها من أيدي المسلمين، فبرز إليهم ابن المقدم الأتابك، فواقعهم عند بانباس وضُغف عن مقاومتهم فهادنهم مدة، ودفع إليهم أموالاً جزيلة عجلها لهم، ولولا أنه خوفهم بقدم الملك الناصر صلاح الدين لما هادنوه. ولما بلغ ذلك صلاح الدين، كتب إلى الأمراء وخاصة ابن المقدم يلومهم على ما صنعوا من المهادنة، ودفع الأموال إلى الفرنج، وهم أقل وأذل، وأخبرهم أنه عزم على قصد البلاد الشامية ليحفظها من الفرنج، فردوا إليه كتاباً فيه غلظة، وكلاماً فيه بشاعة. وكتبوا إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل ليملكوه عليهم ليدفع عنهم كيد صلاح الدين، فلم يجبهم لأنه خاف أن تكون مكيدة منهم" ( ابن قاضي شعبة، ١٩٧٠، ص ٢٢٩-٢٣٠).

ثالثاً: الجانب الاجتماعي:

لقد كانت نصوص ابن قاضي شعبة عن الموصل متنوعة ولا تخلو من الجانب الاجتماعي؛ إذ كان الإهتمام بالمجتمع الموصلية والعلاقات الاجتماعية من مظاهر دراسة الدولة الزنكية كالمصاهرة بين الزنكيين وغيرها من المظاهر الاجتماعية. ومن أهم المظاهر الاجتماعية المصاهرة ومن ذلك: زواج سيف الدين غازي الأول بالخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش، إلا أنه توفي قبل أن يدخل بها فتزوجها بعده أخوه قطب الدين مودود، إذ ذكر ابن قاضي شعبة ذلك في النص الآتي: " وتملك بعد الموصل أخوه قطب الدين مودود وتزوج امرأة أخيه التي مات ولم يدخل بها وهي ابنة حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق، نصب أميراً على حلب في العام ( ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م )، (أبن العديم ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م ، ٢ : ٢٢٢) صاحب ماردين. فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده" (أبن قاضي شعبة، ١٩٧١، ص ١٣٢). أما عن ابنة حسام الدين تمرتاش وكانت تعرف ب(الخاتون) (أبن الأثير، ١٩٦٣، ص ٩٤)، فذكرها ابن قاضي شعبة مادحاً لها، فقال عنها: " وكانت هذه الخاتون يحل لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكاً من آباؤها وأجدادها وإخوتها وبنين أزواجها وأولادها وأولاد أولادها" (أبن قاضي شعبة، ١٩٧١، ص ١٣٢) ، أي أن شأنها عالٍ لأن كل محارمها خلفاء ويحل لها أن تنزع الخمار أمامهم لأنهم محارمها، فمنهم الجد والأب والأخ والزوج والولد والحفيد، وقد نقل نصاً عن ابن الأثير في ذكر هؤلاء المحارم، قائلاً: " ثم ذكرهم ابن الأثير في التاريخ الباهر

وسماهم (١٩٦٣، ص ٩٤-٩٥) ، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز، فإنه كان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة وهم من معاوية إلى آخر خلفاء بني أمية سوى آخرهم وهو مروان بن محمد فإنه ابن عم ليس لها بمحرم، والباقي محارم لها" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٣٢). ولكن ابن قاضي شهبة يذكر أن محارم فاطمة هم ثلاثة عشر من الخلفاء، أما ابن الأثير فيذكر أن محارمها خمسة عشر خليفة (الباهر، ص ٩٤).

وقد سعى الملك نور الدين في تزويج ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني من ابنة عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن السلطان السلجوقي سليمان كشرط من شروط الصلح معه، وذكر ذلك ابن قاضي شهبة قائلاً: " فأجابه إلى ذلك بشروط: منها أن يجدد إسلامه على يد رسول نور الدين؛ لأنه كان يُتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، ومنها إذا طلب عسكره إلى الغزاة يسيره، ومنها أن يزوج ابنته لسيف الدين غازي ابن أخ نور الدين..." (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٢١٧).

أما فيما يخص الشريعة الإسلامية والطبائع التي فرضتها والتزم المسلمون بها وأقاموا عليها الحدود في عهد الملك نور الدين وفقدت بعد وفاته، ففي عهد الملك نور الدين محمود وفيما يخص الوضع الاجتماعي في الموصل ، ذكر ابن قاضي شهبة نصاً يقول: " وحكى أبو المحاسن بقاء الدين يوسف بن رافع بن تميم قال: " كان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة الموصل ألا يعمل شيئاً إلا بشرع الله إذا أمره القاضي، وأن لا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء [رجلٌ موصلٍ زاهد وموضع ثقة لدى الملك نور الدين محمود، وكان في رمضان يفطر من طعامه بشكلٍ خاص]، (أبو شامة ، ٢٠٠٢م، ١ / ١١٦) قال: فكان لا يعمل بالسياسة وبطلت الشحنة، فجاء أكابر الدولة وقالوا لكمشتكين: قد كثُر الدغار وأرباب الفساد، ولا ينجي من هذا شيءٌ إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين في ذلك، فقال: أنا لا أكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك، ولكن قولوا للشيخ عمر يكتب إليه. فحضرنا عنده، وذكرنا له ذلك، فكتب إلى نور الدين ، وقال له: إن الدغار والمفسدين وقطاع الطرق قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتلٍ وصلبٍ وضرب، وإذا أخذ مألٌ إنسانٍ في البرية من يجيء ليشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى شرعه. والعقول المظلمة لا تهتدي، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى صراطٍ مستقيم. قال: فجمع الشيخ عمر أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال: انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد" (ابن قاضي شهبة، ٢٥، ١٩٧١- ٢٦).

فهذا النص خير دليل على أن الشريعة الإسلامية كانت الأساس في القضاء على فساد المجتمع، ولا يعمل بغيرها بأمر من الملك العادل نور الدين محمود.

أما عن جانب الإعمار فقد تناول ابن قاضي شهبة بناء الملك نور الدين محمود لجامعهِ في الموصل والذي أُطلق عليه فيما بعد الجامع النوري نسبةً إليه، وأطلق عليه الجامع الكبير؛ لأنه الأكبر في الموصل، ووصف الجامع قائلاً: "فجامعُهُ في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان"، كما قال عنه: "وكان قد فوض أمر عمارته والخروج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله، وكان من الصالحين" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٣٥)، إذ كانت ثقة الملك نور الدين بعمر الملاء الموصلية كبيرة لذلك فقد اختاره للإشراف على بناء الجامع النوري.

يصف ابن قاضي شهبة بناء الجامع النوري وصفاً دقيقاً، إذ تناول ظروف بنائه منذ اختيار الأرض التي بُني عليها في الموصل فوصفها بأنها "خربة واسعة ما شرع أحد في عمارتها إلا وقصر عمره" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٣٦)، وكان ذلك نتيجة تطير الناس منها، لكن الملك نور الدين محمود كان رجلاً تقياً ورعاً لا يشعر قلبه بالتطير لذلك فقد اشترى الأرض وأنفق عليها الأموال في سبيل بناء الجامع، وقدّر المبلغ ما بين الستين ألف والثلاثمائة ألف دينار، إذ قال عن ذلك: "فاشترها وأنفق عليها ستين ألف دينار، ويقال ثلاثمائة ألف دينار" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٣٦)، فضلاً عن الإنفاق وقف نور الدين محمود قرية لتغطية مصاريف الجامع النوري، وجهزه بالبسط والحضر (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٣٦). وبالرغم مما ذكره ابن قاضي شهبة عن بناء الجامع النوري إلا أنه لم يذكر العام الذي بُني فيه، ولا العام الذي تمّ فيه، وبالرغم من ذكره للوقت الذي استغرق فيه بناؤه من خلال قوله: "فتم في ثلاث سنين" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٣٦)، لكنّه ذكره كوحدة عمرانية قام الملك نور الدين محمود ببنائها في الموصل.

ومن تبرك الملك نور الدين محمود بأبي عمر الملاء الموصلية كان كلما حلّ شهر رمضان المبارك أرسل إلى عمر الملاء الموصلية طلب منه أن يرسل إليه كعكاً ليفطر عليه، وقد اعتاد على ذلك حباً فيه، وكان حين يقدم إلى الموصل لا يأكل إلا من طعامه، وقد ذكر عن ذلك نقلاً عن بهاء الدين بن شداد قائلاً: "كان نور الدين ينفذ في كلّ سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئاً يفطر عليه، فكان يُنفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك فكان نور الدين يفطر عليه. وكان إذا قديم الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملاء" (ابن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٦٨). من خلال هذا النص ومحتواه نستدل أن الملك نور الدين كان على علم بالموصل ورجالها، وكان على علم بخيار رجالها، وهذا يعني أنه كان على علم دائم بأخبارها.

ومن جانب الإعمار أيضاً كان الملك نور الدين محمود قد عقد العزم على بناء مدرسة في أرض كانت لوالده عماد الدين زنكي بالقرب من بغداد، فأرسل في العام (١١٧٣/٥٦٨م) شهاب الدين بن أبي عصرون الموصلية رسواً إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله ليستأذنه بذلك، فتمت الموافقة على المنطقة، ولكن الملك نور الدين توفي قبل الشروع ببناء المدرسة، فقال ابن قاضي شهبة عن ذلك: "وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد وقد أدى

الرسالة بالخطبة العباسية، ومعه توقيع لنور الدين بدر بن هارون وصريفين، قريتان من أعمال العراق كانتا قديماً لأبيه عماد الدين زنكي، فأراد نور الدين أن ينشيء ببغداد مدرسة على حافة الدجلة ويقف عليها القريتين، فأدركه أجله، وعاقه القدر عن ذلك" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٢٢٠).

— أما فيما يخص أعلام الموصل ضمن أحداث العام (١١٦٠هـ/١١٦٠م) فقد ذكر نصاً عن تعيين الملك نور الدين محمود للفتية كمال الدين الشهرزوري وهو من فقهاء الموصل قاضياً على دمشق، قائلاً: " وفيها استعفى القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي من القضاء بدمشق، فأعفاه نور الدين وولى مكانه كمال الدين الشهرزوري وكان من كبار العلماء، وإليه ينسب الشباك الكمالي الذي يجلس فيه الحكام بالجامع بعد صلاة الجمعة من المشهد الغربي بالجامع الأموي" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٥٩)، كما قام بتولية الفتية الشافعي أبي سعد بن عصرون قاضياً على سنجار والشام ومدن أخرى، وذكر أبن قاضي شهبة ذلك في النص الآتي:

" واستعفى الشيخ أبا سعد بن أبي عصرون وكان معه على سنجار ونصيبين والخابور، فاستتاب فيها أبن أبي عصرون نواباً وأصحاباً، وأخذ معه عبد المسيح إلى دمشق،... " (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٩٢).

رابعاً: الجانب الاقتصادي:

أن الجانب الاقتصادي من الجوانب المهمة في التاريخ وفي المجتمع وهو من العوامل الأساسية التي تدرج في المصادر التاريخية كضرورة من ضرورات إظهار تاريخ دولة معينة أو مدينة معينة، أما في كتاب الكوكب الدرية فقد كان الجانب الاقتصادي محدوداً لا سيما في النصوص الخاصة بزكبي الموصل، والأقتصاد يشمل واردات ونفقات، وقد حرص الباحث على حصرها مهما كانت صورها، سلباً أو إيجاباً. ومن أهم مظاهر الأقتصاد لدى الزنكيين.

#### ١. الغنائم:

لقد كانت الغنائم من أهم صور الأقتصاد في الدولة الزنكية، وكانت الغنائم التي حصل عليها المسلمون بقيادة الملك نور الدين محمود كبيرة نتيجة الانتصارات التي حققها في جهاده، ولم ينس نصيب الموصل التي كان امرائها ونوابها وجيوشها يساندون الملك نور الدين محمود في حملاته ضد الصليبيين كلما طلبهم، وقد أرسل إلى زين الدين كوجك نائب قلعة الموصل نصيبه من الغنائم، فقال أبن قاضي شهبة عن تحرير الرها الثاني في العام (١١٤٧هـ/١١٤٧م) على يد الملك نور الدين محمود: " قال أبن الأثير: ومن عجيب ما جرى أن نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجوارى، فحُملن إلى داره (١٩٦٣، ص ٨٧؛ أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٢٤). كما قام بإرسال نصيب الموصل من الغنائم في موقعة شاركت فيها الموصل في الدفاع عن حلب من الصليبيين، إذ قال أبن قاضي شهبة عن الملك نور الدين: " وعاد إلى حلب بالغنائم العظيمة والأسارى، فبعث بعضها إلى أخيه وإلى الخليفة وإلى دمشق... " (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ١٣٠-١٣١).

٢. المكوس:

وفي الجانب الإقتصادي أيضاً قام ابن قاضي شعبة بذكر إلغاء الملك نور الدين محمود للمكوس في الموصل أسوةً بمدن دولته الأخرى لغرض التخفيف عن كاهل عامة الناس، فقال عن ذلك: " أطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد" (١٩٧١، ص ١٩١).

٣. الإنفاق على العمران:

كما كانت الموصل قد نالت رعاية الملك العادل نور الدين محمود، من خلال تمويله للعمارة في الموصل، فقد شملت انفاقاته في المدينة إعمار الجامع النوري، وذكر ابن قاضي شعبة ذلك قائلاً: " وأعطى الشيخ عمر الملاء ستين ألف دينار من فتوح الفرنج، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني" (١٩٧١، ص ١٩١).

اما عن الجانب السلبي في الأقتصاد فقد رصد الباحث ما يضر باقتصاد الموصل في عهد الزنكيين من خلال الكتاب، وأهم صورته عن ذلك:

\_ الكوارث:

لقد تم إدراج الكوارث لكونها تعمل على الإضرار بالصناعة والتجارة في البلد الذي تقع فيه، ولم ينسَ ابن قاضي شعبة ما وقع في الموصل من كوارث، ففي العام (١١٣٠م/٥٢٤هـ)، نزل عليها مطراً عظيماً، رافقه ناراً حارقة اضطرت الناس للهرب، إذ قال عن ذلك: " فيها كانت زلزلة عظيمة بالعراق هدمت بيوتاً كثيرة ببغداد، ووقع بأرض الموصل مطرٌ عظيم، وأمطرت عليهم ناراً فأحرقت دوراً كثيرة وخلقت فتهارب الناس" (١٩٧١، ص ٩٦).

أما في العام (١١٧٠م/٥٦٥هـ) فقد ذكر الزلزال الذي وقع بمدنٍ عديدة ومتجاورة ومنها الموصل، إذ قال: " وفيها كانت الزلزلة الكبرى. لم يرَ الناس من أول الإسلام مثلها. عمّت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق والعواصم وأنطاكية واللاذقية وجبله وجميع بلاد الساحل إلى الداروم، وتهدمت الأسوار والقلاع والدور، وهلك من الناس ما يخرج عن العدد والإحصاء" (المصدر نفسه، ص ١٨٩).

فمن خلال هذا النص والنصوص الأخرى التي تذكر الكوارث الطبيعية، ولا سيما الزلازل، يتضح لنا أن الزلازل كانت في السابق تضرب مساحاتٍ واسعة من الأراضي تشمل مدناً عديدة وبلداناً كثيرة. وفضلاً عن الزلازل فقد حرص ابن قاضي شعبة على ذكر كل ما يضر باقتصاد بلاد المسلمين ومنها الموصل كالأمطار الغزيرة المدمرة التي ضربت الموصل في العصر الزنكي، ومن ذلك الأمطار التي ضربت الموصل ومدناً أخرى في العام (١١٧٤م/٥٦٩هـ)، فذكرها في نصين، الأول: " وأما الموصل فإنه كان بما نحو ما كان ببغداد، واتهدم بالماء نحو من ألفي دار، واستهدم بسببه مثل ذلك، وهلك تحت الهدم خلقٌ كثير، وكذلك الفرات زاد زيادةً عظيمة هلك بسببها شيءٌ كثيرٌ من القرى، وغلت الأسعار بالعراق في هذه السنة بالزرور والثمار، ووقع الموت في الغنم، وأصيب كثيرٌ ممن أكل منها بالعراق وغيرها" (١٨٩).

١٩٧١، ص ٢٢١). والثاني قال فيه: " وفيها قال ابن الساعي: توالى الأمطار بديار بكر وغيرها والموصل أربعين يوماً وليلة لم يروا الشمس سوى مرتين لحظتين يسيرتين ثم تنستر بالغيوم. فتهدمت بيوت كثيرة ومساكن على أهلها، وزادت دجلة بسبب ذلك زيادةً عظيمة، وغرق كثيرٌ من مساكن بغداد والموصل، ثم تناقص الماء بإذن الله تعالى" (أبن قاضي شهبة، ١٩٧١، ص ٢٢١).

فمن خلال ما تقدم يتضح لنا دور الكوارث في تدمير اقتصاد المدن التي وقعت فيها ومنها الموصل، لا سيما في جانبي الصناعة والتجارة، فضلاً عن هدم مساكن الناس.

#### الخاتمة

من خلال البحث الذي تناول كتاب الكواكب الدرية في السيرة النورية واختص بالزنكيين في الموصل من خلاله، وجد الباحث نصوصاً وافية عن زنكيي الموصل بالرغم من أن الكتاب كان يبحث في السيرة النورية، وهذا أمرٌ مؤكد إذ إن الدولة النورية جزءٌ من الدولة الزنكية وامتدادٌ لها؛ فالكتاب غنيٌ بالمادة التي أرخت للدولة الزنكية في الموصل والتي تكونت من ستة وثلاثين نصاً اختصت بالمادة المذكورة ضمن حقبة حكم الملك نور الدين محمود، وهي مادةٌ ضرورية لاكتمال المادة الأساسية للكتاب، فالملك العادل نور الدين محمود فردٌ من العائلة الزنكية وكانت حقبة حكمه هي الحقبة الذهبية التي شهدت الدولة الزنكية فيها أقصى اتساعٍ لرقعتها، وقد خرج الباحث بنتائج وهي:

١. استعان المؤلف ابن قاضي شهبة بحيرة المصادر التي أرخت للتاريخ الإسلامي العام أو إختصت بتاريخ الدولة الزنكية.
٢. كان المؤلف قد أسهب في ذكر المعلومات عن زنكيي الموصل من خلال نصوصه، مما يؤكد اهتمامه بهم.
٣. كانت المعلومات الخاصة بالأمراء الزنكيين في الموصل متساوية من حيث الحجم والأهمية، ولم نلمس فروقاً أو تفضيلاً لأحدٍ منهم على الآخر.
٤. كانت المعلومات عن زنكيي الموصل مباشرة سواء بلسان المؤلف أو نقلاً عن غيره ممن سبقه من المؤرخين ولم يلجأ إلى الإسناد إلاً بشكلٍ نادرٍ جداً.
٥. وجد اختلافاً في نصوص الكتاب عنها لدى من سبقه من المؤرخين ولكن بشكلٍ نادر.
٦. التزام كامل بالمنهج الحولي في معظم أخباره التاريخية.
٧. مما يؤخذ عليه وجود الخطأ في الألفاظ وفي الخبر في القليل من نصوصه؛ أي إن النص فيه خبراً خاطئاً فضلاً عن النقص.
٨. يمكن اعتبار الكتاب خلاصة لأخبار الكتب التي اهتمت بالدولة الزنكية، لا سيما فيما يخص العلاقات بين الموصل وحلب عن طريق نصوصه الخاصة بالموصل سواء أكان المؤلف يهدف إلى ذلك أم لا.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير. (١٩٦٣ م). أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين مُجَدِّد بن مُجَدِّد الشيباني (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م). ألتاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل. تحقيق عبد القادر أحمد طليمات. بغداد. مكتبة المثنى.
- ابن الاثير. (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م). أبو الحسن علي بن أبي الكرم عز الدين مُجَدِّد بن مُجَدِّد الشيباني (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٢م). الكامل في التاريخ. تحقيق ابي الفداء عبد الله القاضي. بيروت. دار الكتب العلمية.
- الحموي. (١٩٠٦م). شهاب الدين ابي عبد الله بن عبد الله ياقوت (ت٦٢٦هـ / ١٢٢٩م). معجم البلدان. تصحيح مُجَدِّد امين الخانجي. القاهرة. مطبعة دار السعادة.
- ابن خلكان. (١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م). أبو العباس شمس الدين احمد بن مُجَدِّد بن ابي بكر (ت٦٨١هـ / ١٢٨٢م). وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان. تحقيق احسان عباس. بيروت. دار صادر.
- السخاوي. (د.ت). شمس الدين مُجَدِّد بن عبد الرحمن الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (ت٩٠٢هـ / ١٤٩٧م). بيروت. دار الجيل.
- أبو شامة. (٢٠٠٢م). شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان المقدسي الشافعي (ت٦٦٥هـ / ١٢٦٧م). الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية. تعليق ابراهيم شمس الدين. بيروت. دار الكتب العلمية.
- ابن الشحنة. (١٩٨٤م). أبي الفضل مُجَدِّد بن مُجَدِّد بن مُجَدِّد بن الشهاب غازي الحلبي (ت٨٩٠هـ / ١٤٨٥م). الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله درويش. دمشق. دار الكتاب العربي.
- ابن العديم. (١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م). كمال الدين ابي القاسم عمر بن احمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ / ١٢٦٢م). زبدة الحلب. تحقيق سامي الدهان. دمشق. دار الطناب العربي.
- ابن الفرات (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م). مُجَدِّد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ / ١٤٠٤م). تاريخ ابن الفرات. تحرير حسن مُجَدِّد الشماع. البصرة. دار الطباعة الحديثة.
- ابن الفوطي. (١٩٦٣م). كمال الدين ابو الفضل عبد الرزاق (ت٧٢٣هـ / ١٣٢٣م). تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقباب. تحقيق مصطفى جواد. دمشق. المطبعة الهاشمية.
- ابن قاضي شهبه. (١٩٧١م). بدر الدين أبو الفضل مُجَدِّد بن تقي الدين (ت٨٧٤هـ / ١٤٦٩م). الكواكب الدرية في السيرة النورية. تحقيق محمود زايد. بيروت. دار الكتاب الجديد.
- أبن كثير. (١٤١١هـ / ١٩٩٠م). عماد الدين أبي الفداء (ت٧٧٤هـ / ١٣٧٢م). البداية والنهاية. بيروت. مكتبة المعارف.
- موسوعة الحديث. معلومات عن عائشة أبنة أبن عبد الهادي. مقالة متاحة على الموقع [haith.islamic.com](http://haith.islamic.com).

## مجلة دراسات موصلية

مجلة فصلية علمية محكمة، تعنى ببحوث الموصل الاكاديمية في العلوم الانسانية

ISSN. 1815-8854

- النعيمي. ( ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م). عبد القادر بن مُجَّد (ت٩٨٧هـ / ١٥٧٩م). الدارس في تاريخ المدارس. بيروت. دار الكتب العلمية.
- ابن واصل. ( ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م). جمال الدين مُجَّد بن سالم (ت٦٩٧هـ / ١٢٩٨م). مفرج الكروب في اخبار بني ايوب. تحقيق جمال الدين الشيبال. القاهرة . المطبعة الاميرية.

مجلة دراسات موصلية، العدد (٦٦)، شباط ٢٠٢٣ - شعبان ١٤٤٤هـ

(٢٤)